

الذكاء الاصطناعي وإشكالية الهوية

Artificial intelligence and the problem of identity

مخبر المجتمع ومشاكل التنمية المحلية في الجزائر، جامعة حسبية بن بوعلي الشلف / الجزائر	فلسفة عامة	ساغي مريم - طالبة دكتوراه m.saghi@univ-chlef.dz
جامعة حسبية بن بوعلي الشلف / الجزائر	فلسفة عامة	مذكور مليكة - أستاذ التعليم العالي medkour.malika@yahoo.fr
DOI :		

الإرسال: 2025/04/09 القبول: 2025/05/22 النشر: 2025/06/19

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى التطرق لمستجدات التطور التكنولوجي التي أفرزت تحديات عديدة أضحت تواجه الانسان المعاصر، خاصة في ظل التطور المتسارع والرهيب لتقنيات الذكاء الاصطناعي وانعكاس ذلك على جوانب حياتية عديدة للإنسان، لاسيما إذا تعلق الأمر بمرجعياته الفكرية والثقافية والاجتماعية فهنا سيواجه الانسان أزمة هوياتية عميقة ناجمة عن السعي الحثيث لمحاكاة الانسان وتقليد قدراته وذكائه في برامج تقنية ذكية واستبداله بالآلة، وهو ما يؤسس مستقبلا لظهور هويات بديلة عنه مناظرة له تماما أو متفوقة عليه.

وقد أفرز التفاعل بين الانسان والآلة الذكية إشكالية فلسفية ووجودية مثيرة للجدل تتعلق بصراع هويتي عميق يمسّ هوية الانسان في الصميم، وله تداعيات عديدة تنذر بنهاية عصر الانسان وتنبئ بمقدم عصر ما بعد الإنسانية كمرحلة جديدة وفارقة في تاريخ البشرية.

كلمات مفتاحية: الذكاء الاصطناعي؛ أزمة الهوية؛ الإنسانية؛ ما بعد الإنسانية؛ الفرد الإحصائي.

Abstract:

This research paper aims to address the latest technological developments that have created numerous challenges facing contemporary man, Especially in light of the rapid and terrifying development of artificial intelligence technologies and their impact on many aspects of human life, Especially if it is related to his intellectual, cultural and social references, then here man will face a deep identity crisis resulting from the relentless pursuit to imitate man and copy his abilities and intelligence in smart technical programs and replace him with machines, This lays the foundation for the future emergence of alternative identities that are completely similar to it or superior to it.

The interaction between humans and intelligent machines has created a controversial philosophical and existential problem related to a deep identity conflict that touches the very core of human identity, It has many repercussions that portend

the end of the human era and herald the advent of the post-human era as a new and crucial stage in human history.

Keywords : Artificial intelligence; Identity crisis; humanity; Transhumanism; The statistical individual.

مقدمة:

لقد أضحت التكنولوجيا اليوم عاملا من عوامل التقدم، حيث انعكست إيجابياتها على شتى مناحي الحياة المعاصرة، وقد مرت الثورة التكنولوجية بمراحل متتالية عكست كل مرحلة مظهرا من مظاهر الحياة الإنسانية، بدءا باختراع الحاسوب وحوسبة العمليات الرياضية مروراً بثورة الاتصالات وعولمة العالم، وصولاً إلى تقنيات الذكاء الاصطناعي التي تحمل في جوهرها وجها مغايرا تماما لما سبقها، حيث أحدثت ثورة الذكاء الاصطناعي تغيرات مبهرة في عالم الاتصال والتكنولوجيا امتدت آثارها إلى الإنسان ذاته، فهذه العملية الجدلية من الإنسان إلى الآلة، ومن الآلة إلى الإنسان أضحت تحمل أبعادا عكسية ذات تأثيرات خطيرة، خاصة أن محاولة الإنسان الأولى وغاياته كانت تهدف لابتكار آلة وبرامج تحاكيه في الذكاء والمهارة، إلا أن اليوم أضحت هذه الآلة أكثر تطورا من صاحبها وقد تتجاوز ذكاءه وقدراته، ما ينذر بنهاية عصر الإنسان وعجزه التام عن مواصلة السير جنبا إلى جنب مع الآلة، وإن كانت هذه هي بؤادر ثورة الذكاء الاصطناعي فيجب الحذر من مآلاتها، خصوصا أن التفرد الآلي والاندماج المتصاعد بين تطبيقات الذكاء الاصطناعي والإنسان قد بلغ مراحل متقدمة تنذر باقتراب مرحلة ما بعد الإنسانية.

فاستشراف هذه المرحلة لا يقلل من شأن وأهمية التطبيقات الذكية في حياة الإنسان، بل يبعث على ضرورة اتخاذ إجراءات احترازية ووقائية تجنباً لمخاطر محدقة به مستقبلا، خاصة أن محاكاة الإنسان نفسه في برامج ذكية قد يؤدي إلى تشكيل هويات بديلة عنه تشاركه كل مرجعياته الهوياتية من فكر مستقل ولغة منطوقة وتواصل مباشر، وحركات مرنة، وخدمات راقية، ...

لقد أضحى بمقدور الآلة اليوم القيام بنفس مهارات الإنسان، ولم يعد حتى الإنسان نفسه يميز بينه وبين الآلة، وهذا ما يدل قطعا على تماهي الحدود بينهما، فملاحمها ملاح ذكاء متفوق، وتطورها المستمر لتحسين قدراتها ومحاكاتها التامة للإنسان يبعث على القلق

ويثير مخاوف جمّة ترتبط ارتباطا وثيقا بأزمة عميقة تمسّ هوية الانسان المعاصر، هذه الهوية التي يتم نسخها بالتدريج وإلى أن يكتمل ذلك سنكون أمام هويات موازية بديلة عنا.

ولصبر أغوار ذلك نستعين بالمنهج التحليلي النقدي من أجل الإحاطة بهوية الانسان المعاصر وما تعيشه من تجاذبات وتأثيرات في ظل بيئة ذكية مشابهة لها تماما، وبذلك تهدف هذه الورقة البحثية للنظر في حقيقة الصراع الهوياتي للإنسان المعاصر، ومآلات ذلك وانعكاساته على الوجود الإنساني عامة.

ومن هنا جاء طرحنا للإشكاليات التالية:

ما هي انعكاسات تطور الذكاء الاصطناعي على هوية الانسان المعاصر؟

وهل يمكن للذكاء الاصطناعي أن يفرز مستقبلا هويات موازية تناظر الهوية الإنسانية؟

وإلى أي مدى سيشكل الذكاء الفائق خطرا على الوجود الإنساني وعلى هويته مستقبلا؟

1- الذكاء الاصطناعي وتأثيراته:

1.1- تعريف الذكاء الاصطناعي:

يعرّف الذكاء الاصطناعي بأنه "ذلك الفرع من علوم الحاسب Computer science الذي يمكن بواسطته خلق وتصميم برامج للحاسبات تحاكي بها أسلوب الذكاء الإنساني، لكي يتمكن الحاسب من أداء بعض المهام بدلا من الانسان والتي تتطلب التفكير والفهم والسمع والتكلم والحركة" (الشرقاوي، 1998، صفحة 23)، ويهدف الذكاء الاصطناعي إلى "بناء آلات تؤدي مهامها تتطلب قدرا من الذكاء البشري عندما يقوم بها الانسان" (طلبة، 1994، صفحة 28)، وإن تعددت تعاريف العلماء والمهندسين للذكاء الاصطناعي إلا أن فحواها واحد يصّب في إطار علم الآلات الحديثة التي تحاول محاكاة الذكاء البشري من خلال اكتسابها لجملة من المهارات كالاستنتاج المنطقي والتعلم والقدرة على الكلام وإتقان لمهارات الحركية مثل البشر، ويوصف إذن بأنه "العلم الذي يسعى إلى تطوير نظم حاسوبية تعمل بكفاءة عالية تشبه كفاءة الانسان الخبير، أي أنه قدرة الآلة على تقليد ومحاكاة العمليات الحركية والذهنية للإنسان، وطريقة عمل عقله في التفكير والاستنتاج

والرد، والاستفادة من التجارب السابقة وردود الفعل الذكية، فهو مضاهاة عقل الانسان والقيام بدوره" (محمود، 2020، صفحة 183).

2.1- خصائص الذكاء الاصطناعي:

تتميز تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي بجملة من الخصائص، يمكن تلخيصها فيما يلي (العاقل و قاشي، 2021، صفحة 43):

-أتمتة الآلات ويقصد به تطبيق الذكاء الاصطناعي على مستوى الآلات والأجهزة ما يجعلها أكثر وظيفية.

-التعرف على الأصوات والكلام والتواصل المباشر مع الآلة.

-قابلية التعلم المستمر، حيث تتعلم البرامج الذكية ذاتيا ودون الإشراف عليه.

-معالجة الكم الهائل من البيانات وتصنيفها وتنظيمها، وتمييز الأنماط المتشابهة في البيانات وتحليلها أفضل من الانسان.

-القدرة على اتخاذ القرارات باستقلالية تامة عن البشر، وإيجاد الحلول للمشاكل غير المألوفة.

-الاستجابة الآنية حيث تمتاز البرامج الذكية بالسرعة في التحليل والاستجابة اللحظية مهما كانت طبيعة البيانات المتوفرة.

3.1- مجالات الذكاء الاصطناعي:

تتعدد تقنيات الذكاء الاصطناعي وتختلف مجالاته البحثية، ويمكن إيجازها كالتالي:

-الأنظمة الخبيرة: النظام الخبير هو برنامج صمم خصيصا لنقل خبرات الانسان وحوصلة تجاربه ومعارفه إلى البرنامج الذكي، ويمكن بذلك استشارته في أي موضوع كان، ويجسد بذلك دور الوكيل المساعد لحل أي مشكلة كانت (الشرقاوي، 1998، صفحة 258).

-الشبكات العصبية الاصطناعية: يستخدم هذا الفرع من الذكاء الاصطناعي محاكاة شبيهة بالشبكات العصبية الخاصة بالدماغ البشري، وهو عبارة عن مجموعة من الخلايا الاصطناعية الموجودة في طبقات متموضعة فوق بعضها البعض، لديها مجموعة من المدخلات ومخرج وحيد (لحلح، 2020، صفحة 95).

-التعلم الآلي: وهو أحد فروع الذكاء الاصطناعي، يهدف إلى جعل الحاسوب قادرا على التعلم من تلقاء نفسه، بالرجوع إلى الخبرات والتجارب السابقة التي غذي بها، ما يجعله قادرا على التنبؤ واتخاذ القرار المناسب بصورة أسرع وأدق. (لحلح، 2020، صفحة 65)

-معالجة اللغة الطبيعية: يتم ذلك عن طريق بناء وصلات ذكية للمواءمة بين اللغات الطبيعية التي يتكلمها الانسان ولغات الحاسب التي يتم بها المعالجة الداخلية، ويهدف ذلك إلى تحقيق تواصل فعال ومباشر بين المستخدم والحاسب . (الشرقاوي، 1998، صفحة 43)

-الروبوت أو الانسان الآلي: تعتبر تكنولوجيا الانسان الآلي من أكثر تقنيات الذكاء الاصطناعي تطوراً من حيث التطبيقات التي تقدم فيها حلولاً للمشاكل، والروبوت عبارة عن آلة كهروميكانيكية يمكن برمجتها لتؤدي بعض المهام التي يقوم بها الانسان يدوياً . (الشرقاوي، 1998، الصفحات 49-50)

4.1- أهمية الذكاء الاصطناعي:

إلى وقت غير بعيد أو ما يقارب الثمانون سنة الماضية كان الانسان يستخدم عقله في حل جل المسائل الرياضية والحسابية، ولكن ظهور الحاسوب أحدث مفارقة لا نظير لها في علم الحساب والرياضيات عامة، إذ استطاع الانسان حوسبة كل العمليات الرياضية ورقمنة كل المسائل الرمزية، وتعاقب الدراسات في هذا المجال مكن من تطوير قدرات الحاسوب خصوصاً في ظل توفر شبكة الأنترنت التي عززت مكانته في المجتمع، إلا أن علماء الحوسبة لم يكتفوا بذلك وبلغت غاياتهم أبعد المقاصد وهي تجاوز قدرات الانسان ومحاكاة ذكائه ومهاراته، وهذا ما أفرز واقعا معاصرا جديدا تمثل في تقنيات الذكاء الاصطناعي، والتي تدمج فيها ميكانيزمات ذكاء الانسان مع الآلة، وهو يؤسس بذلك لحقبة تقنية جديدة مختلفة المعالم عن الحقب السابقة التي شهدتها الإنسانية، فهو بؤادر نظام تقني جديد سيغير جذريا معالم الفكر المعاصر. وأوضح ذلك ميتشيو كاكو Michio Kaku (1947) في قوله "إن هذه المرحلة البطولية للعلم تقترب من نهايتها فقد انتهى عصر العلم وبدأت معالم عصر آخر تظهر" (كاكو، 2001، صفحة 14).

وتبرز أهمية الذكاء الاصطناعي في تأثيراته الإيجابية التي يمكن إيجازها في جوانب عديدة وهي:

-إمكانية نقل الخبرات البشرية المتراكمة من الانسان الخبير إلى الآلة والحفاظ عليها وعدم فقدانها بوفاة الانسان، فتحافظ الأنظمة الخبيرة على الموروث العلمي للإنسان وتضمن استمراره للأجيال اللاحقة.

-يكتسب الذكاء الاصطناعي دورا وظيفيا وأهمية كبرى في مختلف الميادين التي تحتاج إلى استشارة، فيصبح بذلك مساعدا للإنسان ومستشارا له (الوكيل الذكي)، كتشخيص الأمراض ووصف الأدوية، ومختلف الاستشارات القانونية والمهنية، والتعليم التفاعلي، والمجالات الأمنية والعسكرية، والتعاملات التجارية والبورصة وغيرها.

-كما استطاع الذكاء الاصطناعي أن يخلق تواصلًا فعالًا بين الإنسان والآلة باستخدام اللغة الطبيعية، وهو ما يحقق انسجامًا بينهما يجعل استخدام هذه التكنولوجيا متاحًا للجميع وليس حكرًا فقط على المختصين التقنيين.

-كما تتميز الأنظمة الذكية بالاستقلالية في اتخاذ القرار والدقة والموضوعية ما يجعلها محل ثقة ويضمن قراراتها ويدعمها.

-تمكّن الروبوتات من القيام بالأعمال الشاقة والخطيرة واكتشاف الأماكن المجهولة والصعب الوصول إليها سيساعد في تخفيف الأعباء على الإنسان واليد العاملة، ويساعد أيضًا في عمليات الإنقاذ أثناء الكوارث الطبيعية. (عبدالنور، 2005، صفحة 9)

-كما قدمت تطبيقات الذكاء الاصطناعي خدمات ممتازة فيما يخص الترجمة، تحليل الصور ومقاطع الفيديو، القيادة الذاتية للسيارة، طائرات الدرون، الروبوتات المنزلية وغيرها.

وإن كانت هذه مجمل المظاهر الإيجابية للذكاء الاصطناعي، فإن هذه التكنولوجيا الناشئة تحمل في جوانبها الكثير من اللبس والغموض لأن مآلاتها تبعث على القلق والتوجس من الأغراض الحقيقية التي وُكِّلت لها، وأبرز هذه المخاوف اليوم هي حقيقة الذكاء الاصطناعي في كونه تكنولوجيا تهدف لمحاكاة الإنسان في ذكائه وقدراته ومهاراته، وإن استطاعت هذه التكنولوجيا تحقيق هذا الهدف بنسبة كبيرة تفوق ما توقعه الخبراء، فهل هذا يعني أننا أمام بديل عن الإنسان وأن الذكاء الاصطناعي استطاع محاكاة الإنسان إلى مستوى تشكيل هوية له موازية لهوية الإنسان؟ وإلى أي مدى بإمكان التقنيات الذكية تجاوز الإنسان والتفوق عليه؟

إن هذه الردود تبعث على وجود تأثيرات عميقة للتقنيات الذكية على هوية الإنسان المعاصر، ما يجعلها محل تساؤل حول مدى إمكانية محاكاتها وخلق هويات بديلة عن هوية الفرد، وهو ما ينبئ بالقدرات الفائقة لهاته التقنيات في تجاوز عصر الإنسانية.

2- الصراع الهوياتي في العصر الحديث:

1.2- مفهوم الهوية:

تمثل الهوية أحد المقولات الأساسية للوجود الإنساني، وقد تمّ تداولها في حقول معرفية متعددة كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع، والأدب والأنثروبولوجيا وفي خطابات الساسة ودعاة القومية ووسائل الإعلام الوطنية.

وبذلك اختلفت مفاهيمها وتعددت المقاربات التي تداولتها من مجال لآخر، ما أضفى على المفهوم جدلا ودلالات مختلفة، فرضت في هذا السياق ضرورة ضبط المفهوم لغة واصطلاحا.

-الهوية لغة:

لفظ الهوية من الألفاظ الدخيلة على اللغة العربية، واشتقاقه اللغوي يحيلنا إلى حرف الرباط "هو" والذي يعني ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره (صليب، 1982، صفحة 529)، وهوية الشيء هي عينيته وتشخصه وخصوصيته التي ندركها بالجواب عن السؤال ما هو؟ (سعيد، 2004، صفحة 494) واستخدم لفظ الهوية للتدليل أن الشيء هو ذاته، ولا يمكن أن يكون غيره، أي أن الشيء هو هو ولم يتحول إلى شيء آخر، وهوية الانسان ما هي إلا الذات الثابتة رغم تغير أحوالها. (يعقوبي، 2008، صفحة 174) ويعتبرها جميل صليباً " إحدى تصورات الفكر الأساسية ويطلق على مطابقة الشيء للشيء من كل وجه" (صليب، 1982، صفحة 527)، أما في موسوعة لالاند الفلسفية فلفظ الهوية يقابله في اللغة الفرنسية Identité وفي الإنجليزية Identity ويقصد به "ميزة فرد أو كائن يمكن تشبيهه بأنه هو ذاته على فترات مختلفة من وجوده" (لالاند، 2001، صفحة 607).

-الهوية اصطلاحاً :

لم يتفق جمهور المفكرين والأكاديميين على تعريف موحد لمصطلح الهوية، بل تباينت آراؤهم في ذلك، واستقراء لتلك التعريفات يتجلى مفهوم الهوية في أنها مجموع الخصائص والسمات الفريدة التي تميز الأفراد فيما بينهم، بحيث تتجلى شخصية كل فرد كحقيقة فردية متميزة ومغايرة للآخر. وهي تشمل بذلك "مجموع الصفات والسلوكيات التي تميز الانسان عن غيره، فهي بذلك المرجعية أو الخلفية التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية" (شريف، 2022).

وربما أن الاتفاق الأبرز بين المفكرين كان حول الخصائص الجوهرية المميزة للهوية كخاصية التغير والنمو، فهي عملية ديناميكية مرافقة للوجود الإنساني تنمو وتتغير بفعل التجارب الحياتية والصراعات التي يواجهها الفرد، وعبر عن ذلك أليكس ميكشلي Alex Michelly في قوله: "الهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتنمو، تتكون وتتغير، وتشيع وتعاني الأزمات الوجودية والاستلاب" (ميكشلي، 1993، صفحة 7)، وهذا ما أكدته ميشال سيريز Michel Serres (1930-2019) في قوله "الهوية تنطبع بتحويلات غير منتهية" (Serres, p. 193).

فالهوية بذلك كيان مركب من عدة أبعاد: نفسية، اجتماعية وتاريخية تنطوي على شعور ذاتي بالوحدة والانتماء، ما يضيف عليها طابعا فرديا خاصا يميز الفرد عن غيره.

2.2- التأصيل المنطقي والفلسفي والابستمولوجي لمقولة الهوية:

إن التعمق في مفهوم الهوية وتاريخ ولادة هذا المصطلح يظهر بوضوح أن له امتدادات تاريخية وجذور فلسفية تغلغل في عمق الفكر اليوناني القديم، فقد ارتبطت مقولة الهوية في بدايتها ارتباطا وثيقا بالمنطق الأرسطي، باعتبار أن أرسطو أول من وضع واكتشف الآليات التي يسير وفقها التفكير الإنساني، بحيث يكون تفكيراً سليماً صائبا بعيداً عن الخطأ والزلل، فاحتكم أرسطو إلى جملة من المبادئ أطلق عليها "مبادئ العقل"، أولها مبدأ الهوية والذي عني به "تطابق الشيء وانسجامه مع ذاته وثباته ووحدانيته" (عنيات، 2018، صفحة 4)، أي أن الشيء هو هو ويستحيل أن يصير شيئا آخر مهما طرأت عليه ضروب التغير والتحول، فمبدأ الهوية يدافع عن الحقيقة المطلقة وعن ثبات جوهر الأشياء. (مذكور، 1983، صفحة 122)

واعتبر أرسطو مبدأ الهوية القاعدة الأساسية التي تبنى عليها مبادئ العقل الأخرى كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ الثالث المرفوع، غير أن الجذور الأولى لمبدأ الهوية الأرسطي كانت مع الفيلسوف اليوناني "بارميندس" الذي أقر بأن الأشياء ثابتة والكون يحكمه الثبات وهو جوهر الوجود، وأن التغير والصيرورة في الأشياء ما هي إلا عرض ناجم عن خداع الحواس وجب الحذر منه، وبذلك أكد بارميندس على مبدأ الثبات المطلق كجوهر للأشياء، أي أن الشيء هو هو ويستحيل أن يتغير أو يتبدل، وهذا ما يتنافى تماما مع ما أقر به الفيلسوف اليوناني "هيراقليطس" الذي دافع عن فكرة التغير المستمر في الكون والأشياء، وأن العالم محكوم بالصيرورة والاختلاف، إلا أن هذا الطرح سرعان ما اعترضته انتقادات لاذعة من

طرف أرسطو وأفلاطون، لأن التغير ما هو إلا عرض وليس جوهرًا للكون، كما أن الكثرة والاختلاف تؤول للوحدة والثبات، وتفوق بذلك مبدأ الثبات البارميندي على فكرة التغير والصيرورة لهيرقليطس باعتبار أن الأول يستند إلى التصورات الثابتة والواحدة ويؤسس للحقيقة المطلقة، بينما الآخر يستند إلى الواقع المتغير وإلى أعراضه الحسية. وهكذا أسس الجدل المحتدم في الفلسفات البريسقراطية لمقولة الهوية عند أرسطو أي أن الشيء هو هو يتصف بالثبات والوحدة والكلية، وكان ذلك المنطلق للفكر الأفلاطوني والمنطق الأرسطي للذات أعليا من شأن مقولة الهوية إلى اعتبارها أحد البديهيات العقلية التي لا يستقيم التفكير بدونها، وذاك ما تم إقراره في الأورغانون الأرسطي من خلال مبادئ العقل (Heidegger, 1968, p. 257).

وأول سؤال في الهوية عند أرسطو كان عن الإنسان، فتساءل عن ماهيته وجوهره، فنظر إليه على أنه نوع حيواني يتميز عن بقية الأنواع الأخرى بالعقل، فكان الإنسان حيوان عاقل أو ناطق، وأطلق على هذا النمط بالهوية النوعية لأن أرسطو قدم لتصوير الإنسان خصائصه الجوهرية التي يشترك فيها الأفراد والمصادقات التي ينطوي تحتها ذلك التصور، ولم يقدم الخصائص العرضية أو الجزئية التي تميز الأفراد عن بعضهم، وبهذا يكون أرسطو قد أسس لهوية نوعية كلية، تبحث في ماهية النوع دون أفراد (الوقيان، 2024).

ولم يبرح الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت (1596-1650) René Descartes بعيدا عن التصور الأرسطي إذ تصور هو الآخر هوية نوعية للإنسان، فقرن هويته بالفكر وفي كونه موجودا مفكرا وذاك ما عبّر عنه في مبدأ الكوجيتو الشهير "أنا أفكر، أنا موجود". واستقصاء مسار الفكر من أرسطو إلى غاية ديكارت يظهر جليا أن التصور الوحيد للهوية كان تصورا كلياً ينطبق على النوع فقط دون البحث في هويات الأفراد والمصادقات المشككة للنوع، وأسسوا بذلك لنمط وحيد من الهوية وهي الهوية النوعية.

إلا أن التمعن في طبيعة الهوية النوعية على أنها بحث في التصورات الكلية من منطلق أن أرسطو اهتم بالكليات دون الجزئيات في قوله "لا علم إلا بالكليات" قد أحدث مفارقة منطقية وفكرية تفتن لها الفيلسوف التجريبي جون لوك (1632-1704) John Locke الذي استعاض عن الاستدلال الكلي لأرسطو بالاهتمام بالاستدلالات الجزئية، وذلك

بالبحث في هويات الأفراد وفي الخصائص الجزئية التي تميز كل فرد من الأفراد عن غيره وأطلق على هذا النمط من الهوية بالهوية الشخصية، وهذا تجاوز الفكر الفلسفي الحديث مع لوك التصور الكلاسيكي والكلي للهوية، وأسس لتصور جديد لمقولة الهوية يفترض هويات متعددة للأفراد مرتبطة ارتباطا وثيقا بعاملَي الزمان والمكان، وذلك بدلا عن الهوية الماهوية الواحدة والكلية التي أقرها أرسطو.

وبذلك نزع التجريبيون صفة الكلية والثبات من مقولة الهوية، فتحول البحث في الكليات إلى البحث في الجزئيات، وتقبل العقل وصائغ التغيير والضرورة في هويات الأفراد بعدما أغلق على الهوية بصفات الثبات والديمومة.

وفي ذات السياق ومن وجهة نظر أنطولوجية أكد الفيلسوف الوجودي مارتن هايدغر Martin Heidegger (1889-1976) أسبقية الهوية الأنطولوجية للإنسان على هويته المعرفية، ومقصد ذلك أن الانسان يوجد أولا ككينونة مستقلة ثم يسعى بعد ذلك بكل حرية لاختيار مصيره وتحقيق هويته المتميزة والمغايرة تماما لهويات الآخرين، حيث يقول "ماهية الدواين تكمن في وجوده"، فتأكيد الوجوديين على أسبقية الوجود على الماهية هو تأكيد على تعدد واختلاف هويات الأفراد، وتأكيد على أن الدواين مشروع وجود يسعى لتحقيق ماهية وهوية أصيلة له.

وعرفت هوية الانسان بعد ذلك تقلبات وتأويلات عدة من قبل فلاسفة العصر الحديث خاصة فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) الذي عبر عن هوية الانسان المعاصر في تصوره "للإنسان الأعلى"، وهو تصور قائم على بلوغ الانسان القدرة على رفض وتقويض القيم السائدة والأخلاق المتوارثة، وصنع قيم ذاتية ومعاني جديدة مستوحاة كلها من إرادة القوة التي نادى بها واعتبرها الفاصل بين الانسان العادي والأخير كهوية مهترئة ضعيفة تعاني التباسات قيمية حادة بل متعارضة إلى حد العدمية، وبين هوية متعالية عن هوية الانسان الحدائي، وهي هوية الانسان الفائق الذي يجعل من القوة إرادة للحياة، وهي الصانعة لكل القيم والمؤسسة للتاريخ والحضارة.

وقد أثار فكر نيتشه Nietzsche حول تحقق "الإنسان الأعلى" بآثاره للقوة على القيم، وللذة على الفضيلة وللقدرة على العدالة، والمادة على الروح، والحرب على السلام أطماع الغرب الامبريالي للاستعمار واستضعاف الشعوب والتوسع عليهم وإقصاء الآخر، فهاته الهوية الجديدة التي أسسها نيتشه Nietzsche للإنسان الحدائي في أخريات عصر الحداثة

هوية لا أخلاقية مفارقة ومتعالية عن الهوية الأخلاقية التي كرستها القيم الكلاسيكية. وقد اتجهت بالهوية المعاصرة نحو أيديولوجيات مادية وتقنية الأمر الذي أحدث تغييرا عميقا في هوية الانسان المعاصر ما جعل موضوع الهوية أحد أهم القضايا الاستيمية التي ولجت مجال العلوم الإنسانية ونالت حظا وافرا من الاهتمام في الدراسات النفسية والاجتماعية. فنظر علم النفس إلى هوية الانسان باعتباره يمر بمراحل عمرية مختلفة، تعكس كل مرحلة هوية مغايرة له عن الهويات السابقة ما يجعل الهوية ليست بناءا جاهزا مكتملا ومتكاملا، بل هي سيرورة ونمو مستمر، فكل مرحلة يعيشها الانسان ترافقها تغيرات نفسية وتواكبها هوية معينة متماثلة معه وهي انعكاس تام لتلك المرحلة العمرية في حياة الانسان. أما علم الاجتماع اعتبر هوية الانسان انعكاس لهوية الجماعة، باعتبار أن الانسان فرد في زمرة اجتماعية معينة لها خلفيات عديدة كاللغة والتقاليد المشتركة، والتاريخ والعقيدة الواحدة، وعلى ذلك فالهوية عند السوسيولوجيين تنمو تدريجيا وتتأثر بخلفيات المجتمع وتتشعب بها، وهذا ما عبر عنه ميكشلي Michelly في قوله: "الهوية هي الشفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي عن طريقها يتعرف عليه الآخرون باعتباره منتما إلى تلك الجماعة "التاريخ" من خلال تراثها الإبداعي" (ميكشلي، 1993، صفحة 6).

3.2- أزمات الهوية وصورها من عصر الحداثة إلى ما بعد الحداثة:

لقد سمح انتقال الفكر الإنساني من العصر الوسيط إلى العصر الحديث العودة إلى الذات والبحث فيها، والتساؤل عن هويتها وجوهر حقيقتها، فطرح بذلك أسئلة توصيفية كلاسيكية على شاكلة من أنا؟ وما هويتي؟ وما الذي يميزني عن غيري؟ وما هي مرجعيتي الهوياتية الراسخة والثابتة أمام كل ما أراه من تحديات وتغيرات؟ وإن كانت هذه الأسئلة بالبساطة والعفوية التي تختلج أيا منا إلا أنها قد لاقت آنذاك اعتراضات عدة، حالت دون السماح له بتقصي هويته والبحث فيها، ما أدى إلى تعثر الهوية الإنسانية وانسدادها أمام مختلف الأزمات التي اعترضتها في الفترة الممتدة من بدايات العصر الحديث إلى غاية ما بعد الحداثة، ويمكن تصنيفها إلى ثلاث أزمات كبرى:

-أزمة الهوية في الفكر الكنسي :

لقد شكلت المرحلة الانتقالية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث أزمة هوياتية حقيقية للإنسان الغربي، إذ أن محاولته الخروج عن سلطة الكنيسة والتحرر من قيودها

أوجب عليه التحرر أولا من من الهوية الدينية الكنسية التي رسمت معالم هوية الفرد والجماعة في إطار ديني لاثيكي صارم، منغلقي على ذاته، مرجعيته الثابتة في ذلك الكنيسة ومعتقداتها الدينية، ولم يستطع الانسان التحرر من تلك الهوية المفروضة إلا باستفاقة العقل والتمرد على الفكر الكنسي ومعتقداته والتأسيس لفكر عقلاني حر، فثار الانسان الحديث على الهوية الكنسية البالية، وأعاد النظر في حقيقة وجوده وكيونته، وهذا ما شكل هويته الجديدة المستفاقة من دعامتي الفكر والحرية.

أزمة الهوية في ظل الامبريالية الاستعمارية:

لقد مكنت الحرية الفكرية للانسان الحديث من بناء هوية متجانسة أكثر معقولية واستقرارا، وانعكس ذلك على ابداعاته الفكرية والعلمية وفي ثورته الصناعية، فامتلك القوة العلمية والتقنية وتحرر من سلطة الطبيعة وأخضعها لمعاييرها المادية وغاياته البراغماتية، فتحوّلت إرادة المعرفة في ذروة عقلانيته إلى إرادة للهيمنة والسيطرة، فظهرت الحركات الإمبريالية الاستعمارية بزعامة الغرب الأوروبي ضد الآخر المغاير له، ما أدى إلى اصطدام الوعي الغربي الجديد بسلسلة من الحروب والصراعات خلّفت أزمة هوياتية عالمية تباينت أوجهها بين طرفي الصراع، فالغرب الأوروبي الساعي نحو الهوية القوية المهيمنة والمسيطرة تجاوز في الآن ذاته القيم الإنسانية والمعايير الأخلاقية، أما الشعوب المستضعفة والمستهدفة كرسّت كل جهودها لبناء هوية وطنية وقومية تواجه من خلالها الاستعمار الإمبريالي بالتشبث بثوابتها الوطنية المشتركة، وهويتها المرجعية الثابتة. واستقصاء لذلك فقد خلفت الحركة الإمبريالية الواسعة للغرب شروخا هوياتية أنطولوجية انتهت بحربين عالميتين وبجدل هوياتي حضاري عميق، انعكس على هوية الانسان المعاصر وغاياته من الوجود .

واستقراء لحديثات عصر الحداثة ومضامينه الفكرية وايدولوجياته المتعارضة فإن النسق العام له تميز باستحداث أطر مرجعية أشدّ صلابة وعقلانية في تكوين الانسان الغربي وفي تشكيل هويته، فاتسمت هويته بهوية عصره، وتشكّلت انطلاقا من الثوابت التي حددت معالم عصر الحداثة كالحرية والعقلانية والتقنية، وإن كانت التشكيلات الأخيرة هي مادة الهوية الحداثية ومضمونها، فإن صورتها ما هي إلا انعكاس عميق لصلابة وقوة هذه المقومات، ما جعل زيغمونت باومان Zygmunt Bauman (1925-2017) يصف الهوية الحداثية بالهوية الصلبة تعبيرا منه عن متانة وقوة مقومات الانسان الغربي، وهويته التي

تشكلت بمرور مئات السنين "في زمن الحداثة الصلبة كانت مشكلة الهوية تدور حول سبل بنائها والحفاظ على صلابتها واستقرارها، كما كانت تشير إلى فعل متوجه نحو المستقبل وإلى مشروع مفترض، وإلى هوية مفترضة، وكان بناء الهوية عملية دائمة ومهمة فردية" (أبوجبر، 2022، صفحة 155).

-أزمة الهوية في عصر العولمة :

إن الانتقال من عصر الحداثة إلى ما بعد الحداثة قد حمل معه تغيرات جذرية في هوية الإنسان المعاصر خاصة في ظل تحديات سياسة العولمة وما أحدثته من تحولات عميقة في الراهن الفكري والثقافي والاقتصادي العالمي، وإن كانت العولمة قد واصلت شطر الهوية الإنسانية شطرين في عالم معولم القيادة فيه للأمريكا وحلفائها والتبعية فيه للشعوب المتخلفة، وباتت ملامح هذا العالم مغايرة تماما لملامح عصر الحداثة. فالعولمة سعت إلى نشر الثقافة الواحدة وأمركة العالم من خلال تفكيك القيم جميعا والتشكيك حتى العدمية في معطيات الفكر الحداثي كالعقلانية والتقنية...، واتسمت معالم ما بعد الحداثة بمقومات التغير واللايقين كحصىلة للتطورات المتسارعة في مجال الاتصالات والاقتصاد ووسائل النقل والتقارب الثقافي، وما رافق ذلك من صدام حضاري بعواقب التقدم العلمي وبامتداداته المادية المجحفة في حق الإنسانية، فأضحى الشك واللايقين في إرهابات العقل الإنساني ونتائج صناعاته هما الطابع الغالب على الفكر المعاصر، وأدى هذا التفكك القيمي والوجودي الذي يعيشه الإنسان المعاصر إلى تفكك هويته ومرونتها وإلى زعزعة قيمه وثوابته، فلم تعد لديه الثقة في العقل، وخابت آماله في نتائج العلم وتوظيفاته، وفقد شعوره بالحرية وعاش اغترابا أنطولوجيا جديدا أشد قساوة وأكثر فتكا "تحولت فكرة التقدم إلى واقع مرير وجبرية متطرفة بعدما كانت أبرز تجليات التفاؤل الجذري والأمل بتحقيق السعادة الدائمة للجميع، فصارت ترمز إلى تهديد دائم وحتى لا يبشر بالراحة والسكينة بل ينذر بالشدة والمشقة الدائمتين... فلم تعد فكرة التقدم توجي بالآمال الكبرى والأحلام الجميلة، بل صارت تشير إلى المعاناة" (باومان، 2016، صفحة 99).

وانعكس هذا التفكك القيمي والانسلاخ الوجودي على هوية الإنسان التي تأثرت بملامح هذا العصر من تمركز حول الذات وأنانية مفطرة وانهيال للقيم الأخلاقية وقلق دائم وفقدان للثقة والأمان واللايقين المفرط... فتحوّلت هوية الإنسان من الهوية الصلبة ذات المرجعيات والقيم الثابتة والتي رسمت صورة العصر الحديث إلى الهوية السائلة وهي

الصورة المماثلة لهوية الانسان المعولم "وتغيرت مشكلة الهوية في شكلها ومضمونها وأصبحت مشكلة الهوية تمر بمأزق جديد بعدما برع العقل البشري في الإنتاج المفرط للوسائل بما يتجاوز الحاجات...وبعدما صارت الغايات غير محددة وغير يقينية وبعدما انهارت الروابط الاجتماعية التي تتشكل فيها الهوية، وبعدما حلّ الإشباع الآني محل إرجاء الإشباع، وبعدما انهار الإيمان بوجود غاية كبرى للتغيير التاريخي.. وبعدما انتقل الخطاب الأخلاقي والسياسي من إطار المجتمع العادل إلى إطار حقوق الانسان" (أبوجبر، 2022، صفحة 155).

3- أزمة الهوية في عصر الذكاء الاصطناعي:

1.3- الصراع الهوياتي المعاصر بين الانسان والآلة:

لقد حقق التطور التكنولوجي الراهن قفزات نوعية سريعة ومتتالية مكنت العالم الرقمي من تغيير وجه العالم المعاصر بتغيير سبل الاتصال وأساليب التعاملات الاقتصادية والخدماتية ما أفضى إلى تعاملات رقمية سريعة ومريحة، وعكست هذه التطورات الرقمية تطورات مماثلة على الفرد أدت إلى تجلي شكل جديد من أشكال الصراع الحضاري للإنسان المعاصر، وهو الحضور الرقمي أو "الهوية الرقمية" كأبرز تجليات الحضارة الرقمية المعاصرة، خاصة في ظل تقنيات الذكاء الاصطناعي وتأثيرها المباشر على تشكيل هاته الهوية ولملمة أجزائها من خلال تحليل بيانات الأفراد وبناء تصور افتراضي يعكس اهتماماتهم ورغباتهم ونمط تفكيرهم وأسلوب حياتهم.

لقد استطاعت التقانة الذكية اليوم رسم معالم هوياتية افتراضية للأفراد قد تتماثل تماما مع الهوية الحقيقية التي يبدونها في الواقع، ويتجسد حضور هاته الهوية في الشبكات الاجتماعية خاصة والوسائط الرقمية عموما، ولم يعد بالإمكان اليوم إهمال هوية الفرد الرقمية، بل أضحت تعكس هويته الحقيقية، وليس من العجيب إذن أن تطلق إلزا غودار Elsa Godart (1978) كوجيتو جديد يعكس طبيعة الهوية الرقمية المعاصرة "أنا أوسيلفي، إذن أنا موجود" وتعبّر إلزا عن تأثر الهوية بالرقمي في قولها: "السيلفي أحد أشكال التعبير عن الذات الافتراضية، ومنعرجا دخلت فيه الذات الإنسانية عبر الرقمي في رابط جديد مع نفسها ومع العالم لتحديث بذلك ثورة في إدراك محيطها، فمرحلة الصورة الملتقطة ذاتيا مرحلة تكشف فيها الذات الافتراضية عن نفسها من خلال الشاشة لتمثل منعطفًا في تاريخ الذات" (غودار، 2019، صفحة 210).

أدى ولوج تطبيقات الذكاء الاصطناعي العالم الرقمي إلى تنظيم المحتوى الرقمي وجمعه وتخزينه في شكل بيانات ضخمة أو بنوك للبيانات، تمكنت على مدار التفاعلات اللحظية للأفراد عبر المواقع الالكترونية تكوين سجلات الكترونية لكل تعاملاتهم شكلت من خلالها هويتهم الرقمية، وأضحى بذلك الأفراد فاقدين لخصوصيتهم وعرضة للتجسس وتعريض معلوماتهم وبياناتهم للكشف والتشهير.

ولكن كيف تستخدم خوارزميات الذكاء الاصطناعي بيانات الأفراد الرقمية في بلورة وتشكيل هوية مرادفة لكل فرد؟ وكيف يمكن لتقنيات الذكاء الاصطناعي تمييز التمثيلات الخوارزمية للبشر عن بعضهم البعض؟

تعمل تقنيات الذكاء الاصطناعي على تشكيل هوية متميزة لفرد معين من بين ملايين الأفراد، ويتم ذلك عن طريق خوارزميات التعلم الآلي والتي يتم تدريبها للعثور على الارتباطات في مجموعات البيانات الضخمة بين معلمات الإدخال والإخراج المحددة، وبمجرد أن تتعلم الخوارزمية ربط معلمات الإدخال بدقة مع معلمات الإخراج تستطيع بذلك إجراء تنبؤات حول الأفراد (Busch & Bjerring, 2024, p. 6).

وبناء على ذلك يمكن لخوارزميات التعلم الآلي استخلاص استنتاجات حول الأفراد من خلال الأنماط التي تعلمتها والمعلومات التي غذيت بها، والملاحظ أنه كلما زادت مساحات أكبر لإثراء المدخلات كلما استطاعت الخوارزمية فرز الأفراد وتمييزهم بدقة.

وعطفا على ذلك تستطيع خوارزميات التعلم الآلي تعلم الأنماط بكميات هائلة من البيانات، والتي تمكنها من تحقيق أغراضها التنبؤية في استخلاص الخصائص والمميزات التي تميز كل فرد عن غيره، ويمثل كل فرد في التنبؤات الخوارزمية فردا إحصائيا، فالتمثيل الإحصائي للفرد هو مجمل الخصائص التي تحدد الفئة المرجعية التي ينتمي إليها الفرد، وانطلاقا من تلك الفئة المرجعية يتم توظيف العديد من خوارزميات التعلم التنبؤية للتوصل إلى الخصائص الإضافية التي يمتلكها الفرد.

ونتيجة لما سبق يتضح الترابط العميق بين هوية الانسان والتمثيل الإحصائي له، إذ يستطيع التمثيل الإحصائي للأفراد تمييز هوياتهم عن بعضهم البعض، وذلك بتحليل البيانات الخاصة بهم بعد جمعها وفرزها وتنظيمها وتخزينها على شكل بيانات ضخمة تجمع في بنوك خاصة بحفظ البيانات، غير أن النظر في التمثيلات الإحصائية للأفراد يظهر جليا

وجود عدة مخاطر تهدد الانسان أولا من حيث جمع بياناته وتعرضه لانتهاك خصوصياته وبياناته الشخصية دون أي إذن منه ودون معرفته فيما يتم توظيفها، وتبقى أغراض ذلك مجهولة تماما لصاحبها، وقد توظف لأغراض مشبوهة أو يتم بيعها للشركات التجارية، وهذا ما يعد تعديا خطيرا على حق الفرد في الخصوصية وسرية بياناته واستقلاليتته...

ثانيا تعامل الخوارزميات التنبؤية البشر كأفراد إحصائيين بناء على ما تفرزه تمثيلاتهم الإحصائية النابعة من تحليل بياناتهم الشخصية، وهذا ما قد يعرض هوية الفرد للانتحال والتزييف من قبل الأنظمة الذكية ذاتها، والتي بمقدورها اليوم صنع وتوليد محتويات مزيفة مماثلة ومشابهة للمحتويات التي يصنعها الانسان، فلم يعد بالإمكان التمييز بين المحتوى الرقمي الذي ينتجه الانسان والذي تنتجه التقنيات الذكية "تقنيات الذكاء الاصطناعي باتت قادرة على توليد محتوى لا يمكن تمييزه عن المحتوى الذي ينتجه البشر مثل النصوص والصور والأصوات، بل وصل الأمر إلى محاكاة سلوكيات الانسان بشكل مقنع مثل حل ألغاز Captcha وانتشار روبوتات الدردشة، وتوليد المحتوى المزيف" (موقع العربية، 2024).

إن انتحال الأنظمة لهوية الفرد الرقمية قد يعرضه لعواقب خطيرة تمسّ بهويته وتؤثر سلبا على حياته ومختلف تعاملاته، كإنشاء محتويات رقمية تحض على الكراهية والعنصرية ودعم الإرهاب وخطابات سياسية مفبركة وغيرها، وأبرز حادثة عن ذلك إنشاء التقنيات الذكية لمحتوى رقمي على شكل فيديو مزيف بانتحال شخصية الرئيس الأمريكي السابق "باراك أوباما" بتقديمه خطابا سياسيا.

فالتقنيات الذكية اليوم بات بمقدورها التعامل مع بياناتنا وهويتنا الرقمية بكل مرونة وسلاسة، وأضحى بمقدورها إنشاء محتويات رقمية تنسبها إلينا وتنتحل من خلالها شخصيتنا وكأننا نحن تماما، إذ لم يعد بالإمكان التمييز بوضوح بين ما يصدره الانسان في العالم الرقمي وبين ما تنتجه الآلة والبرامج الذكية، وأضحى التشابه الكبير بينهما حدّ التطابق إلى درجة أن كبريات الشركات الرقمية طورت برامج خاصة للتعرف على الهوية الحقيقية للمستخدم وتمييزها عن المحتويات المزيفة، إلا أن هذه البرامج سرعان ما يتم اختراقها والتلاعب بها من قبل الأنظمة الذكية، ما يفرض على الشركات المنتجة تطوير وتحسين أنظمتها باستمرار في حماية هوية المستخدمين والتحقق منها.

إن هاته الانتهاكات التي تستهدف هوية الأفراد في العالم الرقمي من قبل الخوارزميات الذكية أصبحت تشكل خطرا حقيقيا عليهم، سواءا بامتلاك نسخة عن بياناتهم وتعاملاتهم، وسواءا بمحاولة انتحال هويتهم وتمثيلهم في تعاملاتهم الرقمية، والظاهر أن الغاية من ذلك هي محاولة تجسيد هوية إلكترونية بديلة عن الانسان وموازية لهويته.

فملاح هذا الصراع الهوياتي بين الانسان والآلة أصبحت أكثر خطورة وفتكا وتحمل في جوانبها تداعيات عديدة تمس الوجود الإنساني، وكأنها محاولة تهدف في عمقها لاستبدال هذا الوجود بوجود آخر مشابه له تماما وقد يتفوق عليه، خاصة أن تقنيات الذكاء الاصطناعي ما هي في الأصل إلا محاكاة لذكاء الانسان و لقدراته المختلفة كالإدراك والتفكير، واللغة والكلام واتخاذ القرار والتخطيط، إضافة إلى مهاراته الحركية المتميزة، وينبئ كل ذلك أن تطبيقات الذكاء الاصطناعي ما هي إلا محاكاة صريحة لهوية الانسان النوعية، وأبرز ما يدل على هاته المحاكاة هي تطبيقات الأنظمة الخبيرة التي تعمل على التعلم من خبرات الأفراد المختصين والخبيرين في مجال ما، وذلك بنقل خبراتهم وحفظها في الآلة، وهنا تصبح الآلة بديلا عن الانسان تمتلك نفس مهاراته وتحاكي تماما قدراته وخبراته بل قد تتفوق عليه من خلال تعلمها للنشط.

وبإجراء مقارنة بسيطة بين قدرات الانسان وقدرات الآلة الذكية يتأكد لنا ذلك، فإن كانت هوية الانسان في كونه مفكر، ناطق يتكلم ويتواصل باللغة، له ذاكرة ويستطيع الحكم واتخاذ القرار وحل المشكلات ، له مهارات حركية مرنة وغيرها من الميزات، فالآلة الذكية اليوم بمقدورها محاكاة هذه القدرات تماما، فأوضحت قدرة على التفكير وإصدار الأحكام واتخاذ القرارات باستقلالية تامة، والتعلم من المعطيات وتحليل البيانات ولها أيضا ذاكرة غير محدودة، وتتكلم مثل الانسان وتوظف اللغة الطبيعية في التواصل معها، كما أصبح بإمكان الروبوتات الحركية القيام بأعمال ومهام شاقة مماثلة للإنسان بل أصبحت الآلة أكثر فعالية في ذلك من الانسان كالعامل في المصانع والأماكن الوعرة..

أليست هذه الخصائص التي تميز الآلة الذكية هي الخصائص الجوهرية للإنسان؟ وألا يمكن اعتبار أن الذكاء الاصطناعي بذلك قد تجاوز محاولته محاكاة الذكاء البشري إلى محاكاة الهوية البشرية وإنشاء هوية مماثلة وموازية لها؟

2.3- تأثير الذكاء الاصطناعي على هوية الانسان المعاصر:

إن التقنيات الذكية وإن حملت معها تطورا مذهلا في كل الجوانب العملية، إلا أنها قد تشكل خطرا كبيرا على الانسان، بل قد تهدد وجوده خاصة عندما يتجسد الذكاء الفائق وتتمكن الروبوتات من تحقيق المحاكاة التامة والقيام بالمهارات الحركية بكل مرونة ودقة، وقد يطرح ذلك إمكانية الاستغناء عن البشر في كل الأعمال التي كانت حكرا عليهم، وبمنافسة الآلة لهم في ذلك بل تفوقها عليهم كإمكانية تحسين أدائها وارتفاع مردوديتها وتطورها المستمر وتكلفتها المنخفضة، ما يجعل الآلة بديلا مناسباً وفعالا مقارنة بالانسان، فهي تملك نفس مميزاته وتعمل باستمرار على تطوير ذاتها وتحسين نتائجها، عكس الانسان الذي يسير بوتيرة منتظمة وثابتة ونادرا ما يعمل على إضافة تحسينات على أدائه، فتتحول الآلة بذلك إلى منافس حقيقي للإنسان في سوق العمل نظرا لمزاياها ما ينعكس سلبا على الانسان الذي يفقد معناه وقيمه بفقدانه لوظيفته وتغيبه عن محيط العمل وعن معاني الإنتاج، الابتكار والتقدم.

وامتدادا لذلك يشعر الفرد باستلاب حقيقي ناجم عن تعرضه "لتأثير نظام من العمليات الخارجية التي تعمل على إحداث تغيرات عميقة في جوهر الهوية" (ميكشلي، 1993، صفحة 147)، وينجر عن معاشة الانسان لتلك الاكراهات الاستلابية الناجمة عن استبداله بالتقانة الذكية تقويض ثقته بنفسه والتأثير على تقديره الذاتي ما يخلف اضطرابات نفسية واجتماعية وغيرها.

كما أن الهوية الإنسانية في ظل البدائل الذكية تعاني أزمة وجودية حقيقية، خاصة عندما يشعر الفرد أنه يعيش وجودا زائفا، يجد نفسه تاركا مسؤولية خياراته وقراراته للآلة حتى تقرر مصيره وتنوب عنه في ذلك، وبذلك يتجرد من وجوده الأصيل ومن حريته ولا يستطيع تقرير ماهيته (حماد، 2005، صفحة 115).

ويتزايد أيضا شعور الفرد بالاغتراب الناجم عن شعوره باللامعنى والتشيؤ بفقدانه لجوهر ذاته كأنا متميزة واعتباره جزء من عالم الأشياء، فينفصل عن المجتمع ويفقد إحساسه بالاتزان ويتوقف نموه الذاتي، وتتجسد بذلك ملامح اغتراب الانسان عن هذا العالم، ومحاولته الانسحاب منه بعدما سيطرت الآلة على جميع مناحيه، وتفوقت على منشأها وهو الانسان، وقد تنذر بؤادر هذا الصراع الأنطولوجي التكنولوجي في ماهيته بزوال عصر وبداية عصر جديد.

خاتمة:

إن كان المغزى الحقيقي لأنصار النزعة التكنولوجية والمادية المعاصرة التمهيد لبوادر عصر جديد يتفوق فيه التكنو انسان Technosapien عن الانسان العاقل النسقي والكلاسيكي Homosapien ، والسعي الحثيث نحو مستقبل بديل للإنسانية، وذلك بتجاوز القدرات الطبيعية للإنسان بتكنولوجيا متقدمة تقوم على تحسين وتعزيز النوع الإنساني، فيتحول إلى انسان فائق بقدرات معززة تقنيا.

ينبغي المشروع ما بعد الإنساني على وضع حدّ لهيمنة الانسان، وتفكيك مركزيته ومحوريته في الوجود، واستبدال التفوق البشري بتفوق آلي، وإن كانت مرحلة ما بعد الإنسانية في نظر المؤيدين لها والمدافعين عنها امتدادا حتميا لمرحلة الإنسانية، ولا سبيل لتجنب هذه المرحلة سوى باندماج الإنساني مع التكنولوجي.

إنّ هذه المعالم الجديدة الطارئة على الوجود الإنساني مستقبلا ستحدث تأزما عميقا في هوية الانسان، ليس بالنظر إلى طبيعته، بل بالنظر إلى محاولات تغييرها وقولبتها تقنيا، وإن أولى الخطوات في ذلك هي تكنولوجية الذكاء الاصطناعي ودورها في محاكاة الهوية الإنسانية، ومحاولة تجاوز قدرات الانسان والتفوق عليه، ولا غرابة أن نعتبر المرحلة الحالية في تطور الذكاء الاصطناعي هي المرحلة الأولى في بناء عصر ما بعد الإنسانية، فأول ضروب هذا العصر هي محاولة استبدال الانسان وهويته بمعناها الكلاسيكي الأرسطي والديكارتي والكانطي بهوية تقنية متفوقة، فمن هوية الهوموسابينز إلى هوية السيبورغ، وبين هذه وتلك اندثار للأولى وخلود للثانية.

لقد بينت دراستنا لأزمة الهوية المعاصرة اكتشاف الطريق الذي عبّده النزعة التقنية والمادية للسير فيه بإنسانيتنا نحو المستقبل، وأفرزت بذلك جملة من النتائج، سنكتفي بذكر أهمها:

-أزمة الهوية المعاصرة في ظل تقنيات الذكاء الاصطناعي هي الأرضية المؤسسة لعصر ما بعد الإنسانية، حيث ستستحوذ الآلة الذكية على مركزية العالم.

-في عصر ما بعد الإنسانية ستتغير موازين القوى، فمن الانسان الصانع للآلة إلى الآلة الصانعة للإنسان، ومن الانسان الفاعل إلى الانسان المنفعل.

-الهوية الجديدة للسيبورغ لا تبالي بمحددات الهوية الكلاسيكية كالفكر والروح واللغة والقيم كفصل نوعي للهوية، بل يتم إنتاج الهوية وصنعها كإنتاج أشياء مادية في مختبرات تكنوبولوجية تعمل على تغيير ماهية الانسان الطبيعية نحو الانسان الفائق.
-إن كانت هوية الهوموسابينز تنتهي في مصيرها إلى الموت والفناء، فإن هوية السيبورغ تتغنى بالخلود وتنفي عنها مصير الموت والفناء.

وحوصلة لما سبق فلا سبيل لتجنب هذه المرحلة الما بعدية سوى بالتفوق المستمر للإنسان على الآلة وإبقائها في تبعية دائمة له، وإخضاعها لسلطته ولقراراته، ويتحمل مسؤولية ذلك المصممون والمنتجون لهاته التقنيات الذكية حتى تكون تحت سلطة الانسان وقيادته وأن لا تخرج عن نطاق سيطرته وتحكمه، إضافة إلى تقنين محاكاة الآلة للإنسان حيث لا يصل مستوى هاته المحاكاة إلى درجة التماهي والمماثلة التامة له.
إضافة لذلك تتحمل الشركات العالمية المنتجة لهاته الصناعات مسؤولية تقنينها بضوابط أخلاقية وإنسانية حتى تستخدم في إطار يضمن خير البشرية وخدمتها وليس استبدالها والتغيير في هويتها.

قائمة المراجع:

- إبراهيم مذكور. (1983). المعجم الفلسفي. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
إلزا غودار. (2019). أنا أوسيلفي إذن أنا موجود، تحديات الأنا في العصر الافتراضي (الإصدار ط1). المغرب: المركز الثقافي للكتاب.
أليكس ميكشلي. (1993). الهوية، ترجمة علي وطفة (الإصدار ط1). دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعة.
أندريه لالاند. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل (الإصدار ط1، المجلد المجلد الأول GA). بيروت-باريس: منشورات عويدات.
جلال الدين سعيد. (2004). معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. تونس: دار الجنوب.
جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، ج2. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

حجاج أبو جبر. (2022). هل من مكان للهوية في عالم معولم؟ استكشاف الهوية السائلة عند زيغمونت باومان. مجلة تبين، عدد خاص: الهوية في عالم متغير، المجلد 11 (العدد 41).

حسن محمد حماد. (2005). الاغتراب عند إيريك فروم. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

زيغمونت باومان. (2016). الحياة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر (الإصدار ط1). بيروت: الشركة العربية للأبحاث والنشر.

شايح الوقيان. (2024, 08 10). الهوية والماهية ومشكلة المصطلح. تم الاسترداد من موقع جمعية الفلسفة:

<https://saudiphilosophy.com/articles/identity/?lang=ar>

عادل عبدالنور. (2005). مدخل إلى عالم الذكاء الاصطناعي. الرياض- السعودية: دار الفیصل الثقافية.

عبد الرزاق مختار محمود. (2020). تطبيقات الذكاء الاصطناعي: مدخل لتطوير التعليم في ظل تحديات جائحة فيروس كورونا. المجلة الدولية للبحث في علوم التربية، المجلد 3 (العدد 4).

عبد العزيز شريف. (2022). أزمة الهوية في عصر العولمة. تاريخ الاسترداد 05 08 2024، من ملتقى الخطباء: <https://khutabaa.com/ar/article>

عبد الكريم عنيات. (2018). الهوية والمستقبل، نحو فك أسر الهويات المغلولة. الملتقى الوطني حول : اشكالية الهوية بين التأويل الايديولوجي والفهم العقلاني. جامعة حمة لخضر الوادي. تاريخ الاسترداد 20 08 2024

عبدالغني العاقل، و خالد قاشي. (2021). البيانات الضخمة والذكاء الاصطناعي لتمكين التحول إلى حكومة ذكية "دراسة حالة دولة الإمارات العربية المتحدة". مجلة نماء للاقتصاد والتجارة، المجلد 5 (العدد 2).

علي الشرقاوي. (1998). الذكاء الاصطناعي والشبكات العصبية. مصر: مطابع المكتب المصري الحديث.

محمد فهي طلبة. (1994). الحاسب والذكاء الاصطناعي. مصر: مطابع المكتب المصري الحديث.

محمد لحج. (2020). مدخل إلى الذكاء الاصطناعي وتعلم الآلة (الإصدار ط1). أكاديمية حسوب.

محمود يعقوبي. (2008). معجم الفلسفة، ط1. القاهرة: دار الكتاب الحديث.

موقع العربية. (2024). صراع الهوية الرقمية.. كيف تميز بين الإنسان والآلة في الفضاء الرقمي؟ تاريخ الاسترداد 13 9 2024، من موقع العربية:
<https://www.alarabiya.net/technology/2024/09/01>

ميتشيو كاكو. (2001). رؤى مستقبلية، ترجمة سعد الدين خرفان. الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

Busch, /. J., & Bjerring, J. (2024). Artificial intelligence and identity: the rise of the statistical individual. *AI & SOCIETY*, Springer.

Heidegger, M. (1968). *le principe d'identité dans question ; tome 1*, traduit André préau. Edition Gallimard .

Serres, M. (s.d.). *Lincandescent*. paris, France: Editions le pommier.